ـيةأُخرجت من الفضاء العمومي بقرار سياسي

ــهلون أسرار اللغات أو ينتصرون لنموذج جاهز

المركزية لكل فعل إنساني يسهم في تطور وجود الناس. وسبق أن قال توكفيل عن الذين قاموا بالثورة في فرنسا إنهم لم يكونوا سوى تلاميذ تركوا مدارسهم ونزلوا إلى الشارع. وكان يقصد بذلك أن بسطاء الناس قد يكونون وقود الثورات، لكن المفكرين هم الذين يخلقون التربة التي تحتضن العوالم الجديدة التي تبشر بها. لذلك لم أنظر إلى السيميائيات باعتبارها مجرد تأملات، وهي كذلك في جانب منها، ولكن أيضا باعتبارها أداة للهدم والتقويض وتفكيك الأنساق التي تختفي فيها الإيديولوجيات التي تتحكم في سلوك الناس وتوجهها. فدراستي للإشهار ليست منفصلة عن رغبتي في التصدي لكل أشكال التضليل والتمويه التي تصاغ ضمنها الوصلة الإشهارية، ودراستي للدستور لم تتناول التشريعات والقوانين المنظمة، بل انصبت على النصوص المضمرة، التي تحكمت بعد ذلك في كل أشكال التنزيل. الأكاديمي ليس مهتما بالسياسة، بمفهومها الحزبي، وليس معنيا بالحقائق التي تروج لها الأحزاب، ولكنه معني بالسياسة حين تكون خلفية يتحدد من خلالها الشرط الإنساني. لذلك يخطئ السياسيون كثيرا عندما يعتقدون أن الفعل السياسي مفصول عن «متاهات» التأمل الأكاديمي. فالتعددية في المعنى ليست مفصولة عن التعددية في الرؤى، والقيم، وفي السياسة أيضا. فعندما نقر بأن النص/ الواقعة لا يمكن أن يكون مصدرا لمعنى واحد، نقر أيضا بأن الوجود لا يمكن أن يستقيم من خلال رأي واحد. إن حياة «الجسد الاجتماعي» تكمن في تنوعه لا في وحدانية النشأة. وهذا ما قلته في مقدمة كتابي «وهج المعاني»، بل ربما هذا هو الذي يجعل السياسي ينظر بريبة وحذر إلى المثقف.

– على ذكر أشكال التضليل والتمويه في الوصلات الإشهارية، ما تعليقك على الإشهارات التي صارت تحتل حيزا كبيرا من حياتنا اليومية؟ وهل المواطن البسيط محصن ضد هذه الألاعيب، يمكن أن نستحضر هنا ما وقع مؤخرا في عملية النصب الكبيرة المعروفة بقضية «باب دارنا»، حيث وقع مئات الناس ضحية لإشهارات مشاريع وهمية؟

● في العموم لا يتمتع المغاربة بحماية كافية من ألاعيب الإشهار، ولا وجود لمؤسسة مهمتها مراقبة ما يعرض على المواطنين من إشهار على غرار ما هو موجود في فرنسا (مكتب مراقبة الإشهار). قد تكون هناك تشريعات في هذا الباب، لكن لا وجود لمؤسسة تسهر على تفعيلها، تابعة لـ«الهاكا» مثلا، يلجأ إليها المستهلكون من أجل حمايتهم. ومع ذلك، فإن قضية «باب دارنا» ليست مرتبطة بلصوصية إشهارية، بل لها علاقة بلصوص حقيقيين سرقوا مالا حقيقيا قد لا يتحمل الإشهاريون أي مسؤولية في ذلك. فالمؤسسة الإشهارية ليست معنية باقتناء الأرض وتجهيزها وجمع المال وتوزيع القطع، بل معنية فقط بتسويق منتج، وهو تسويق مؤدى عنه. فلا تتحمل المؤسسة الإشهارية مسؤولية حليب فاسد، بل الشركة التي توزعه.

– هذا واضح، لكن نتساءل هنا عما يتعلق بقراءة الصورة وفهم أوهامها. ألا ترى أن هناك حاجة لإدماج التربية على التعامل مع الصورة في المناهج المدرسية والجامعية مادام أغلب ما نستهلكه يمر عبر الصورة أو المرئي عموما؟

● المدرسة المغربية متخلفة، وكذلك الجامعة، في برامجها ورؤاها، كما هي كل قطاعات البلاد، بل ليس هناك تفكير جدي في إعادة النظر في المنظومة التعليمية استنادا إلى حاجاتنا نحن، كما يمكن أن تتحقق في اللغة والحضارة والمشترك المحلي. لست ضد الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى، ولكن لا يمكن استنساخ تجارب واستنباتها بالقوة في تربة لا تتسع لها أو لا تقبلها أو غير قابلة للتحقق استنادا إلى إمكانات محدودة. من هذه الزاوية، لا أحد يفكر في الصورة، ولا أحد يعتبرها جزءا من آليات التفكير والبرهنة والإقناع، رغم كل ما تقوله المظاهر الخارجية. فلا يمكن أن نتعامل مع الصورة في المحيط إذا كنا لا نعرف طبيعتها ولغتها وقوانينها في إنتاج المعنى وفي تداوله بين الناس. هناك أمية بصرية مُعمّمَة، لكنها لا تثير اهتمام أحد، فقد ألف الجميع العيش داخل صوَرة توهمهم بأنها الحقيقة، كما يفعل ذلك التلاميذ والطلبة وعامة الناس في المقاهي وهم يعبثون بهواتفهم أو لوحاتهم، لكن القليل من هؤلاء يدرك طبيعة الصورة وقدرتها على التشويش على الواقع أو تشويهه. فهل ندعو إلى إدخال الصورة إلى البرامج منذ السنوات الأولى في المدرسة؟ وإذا دعونا إلى ذلك هل سيسمعنا أحد؟ لا أعتقد.

– ستعرف السنة الدراسية المقبلة اعتماد نظام جامعي جديد أهم ما فيه أن الإجازة ستصير أربع سنوات بعد أن كانت ثلاثا، وستسمى الباكلوريوس عوض الإجازة، وسيكون تقويم المعارف استنادا على ما يسمى الأرصدة القياسية... كيف تتلقى هذا بالنظر إلى الوضع الجامعي الحالي؟ ومتى يمكن أن نقول إن الجامعة المغربية أخذت فعلا السكة الصحيحة؟

● لا أعرف تفاصيل هذا الإصلاح الجديد، لكنه لن يكون مختلفا عن الصيغ الإصلاحية السابقة، فالذين يفكرون في الإصلاح لا علم لهم بواقع الجامعة المغربية، ولا يعرفون ما يجري في مدرجاتها وفصولها، ولا علم لهم بالكفاءات التي تدرس فيها. وربما سأكرر ما قلته أعلاه: كل إصلاح لا ينطلق من تفكيك دقيق لواقع الحال في الجامعة المغربية لا يمكن أن ينجح. فالوصفات الآتية من الخارج لا يمكن أن تنجح لأن نجاحها في موطنها لا يعني بالضرورة إمكان نجاحها عندنا. هناك تفاوت كبير بيننا وبينهم في كل شيء، وهناك فساد معمم في الجامعة المغربية وصلت آثاره الآن إلى هيئة التدريس نفسها. فهل نذكر بقلة الموارد البشرية والمادية، وبالتفاوت في العقليات؟ نحن نشكو من خصاص حضاري كبير على المستوى اللغوي والاجتماعي والسياسي (ما زال المغاربة يختارون ممثليهم بالقفل والسيارة والبراد...). هناك تدنّ في المستوى المعرفي لطلبتّنا، وهناك بالإضافة إلى ذلك المحسوبية والزبونية التي تتحكم في كل شيء، بما في ذلك التوظيفات والشهادات.

– انشغلتَ بتحليل أنواع مختلفة من الخطاب، وكثيرون يلاحظون اليوم عودة الخطاب الشعبوي إلى الساحة السياسية المغربية. ما أهم ما يمكن أن تسجله على الخطاب التواصلي السياسي المتداول عندنا؟

● الشعبوية ظاهرة عالمية، إنها من مخلفات عولمة بخست العمل الفكري والسياسي، إنها جواب خاطئ عن مشاكل حقيقية، إنها تقسم المجتمع إلى طرفين: نخبة مرتشية وفاسدة في مواجهة شعب يتميز بالطهرانية والتقديس. وهي بذلك حالة مَرَضية في تاريخ الإنسانية، لأسباب عدة، منها أنها تبسيطية وتكره الفكر المركب، فهي تنطلق، كما ذكرت، من مشاكل حقيقية، لكنها تقترح حلولا تتناقض على المديين المتوسط والبعيد مع طموحات معتنقيها (كل الفاشيات القديمة كانت شعبوية). وهي مرضية أيضا لأنها تعتمد الشوفينية وكراهية الأجنبي والتمجيد المثالي للوطن، بل تسخر من الفعل السياسي ذاته، فهي معادية للإيديولوجيا بمفهومها السياسي، وليس بمفهومها التضليلي. وما ساعد على نموها وتطورها سقوط الوسيط السياسي والنقابي أو تراجع أهميته في المجتمع، فالدولة لم تعد تحاور مؤسسات تتمتع بصفة التمثيلية، بل تصطدم بشعب يعرف كيف يحتج، لكنه لا يعرف كيف يفاوض أو يحدد أولويات نضاله، ويكون بذلك عرضة للتضليل. أحيانا قد تتخذ الشعبوية مظهرا طائفيا أو عرقيا، يلغي الوطن ويدعو الناس إلى العودة إلى الطائفة أو إلى تمجيد انتماء عرقي أثبت العلم الحديث والممارسة الإنسانية بطلانه.

لقد اتخذت الشعبوية في المغرب مظاهر متعددة، منها الانتماء الفئوي، الذي يتردد الكثيرون في تصنيفه ضمن هذه الظاهرة، ومع ذلك فهو كذلك لأنه يمتح الكثير من عناصره وممارساته من هذه الظاهرة. فلم يعد العمل النقابي مؤسسا على مطالب وطنية تخص فئات من الشعب توازي بين الحقوق والواجبات والممكن والمستحيل، بل على احتجاج مرتبط بمصلحة تخص فئة معيّنة دون اعتبار لكل التقاطعات مع فئات أخرى أو مع المصلحة العامة (خلق التنسيقيات التي حلت محل النقابات). حدث هذا عند الأساتذة والأطباء والكثير من المهن والفئات الشعبية. يتعلق الأمر بشعبوية ذات بعد احتجاجي يمجد الانتماء إلى الفئة وليس إلى الجسم الاجتماعي العام.

> عندما تفتقر الدولة إلى مشروع حضاري تكون ميالة إلى استيراد كل شيء، بما في ذلك استيراد لغة «جاهزة»

أظن أننا نحتاج إلى مساحة أوسع مما هو متاح هنا للحديث عن الشعبوية في السياسة، مع ذلك هناك مثال يمكن الإحالة عليه؛ فظاهرة بنكيران يمكن تصنيفها بهذا الشكل أو ذاك ضمن نوع من الشعبوية، من حيث طبيعة خطابه السياسي الذي تخلص من التاريخ الوطني لكي يستحضر تاريخ العقيدة، ومن حيث الفئات المستهدفة، حيث حلت محل الموظف والعامل والفلاح والطالب مقولات جديدة هي المسكين والفقير واللي ما في حالوش وغيرها. فهذه تتضمن موقفا مسبقا يستمد قوته من الانفعال وليس من الدور الاجتماعي. فالخطاب السياسي عنده لا يتحدد من خلال يسار أو يمين أو وسط، بل من خلال الانحياز إلى الفقراء.

– على ذكر مخلّفات تبخيس العمل الفكري والسياسي، قلتَ مرة إنه مقابل تراجع خطاب المثقف هناك ميلاد لخطاب الخبير الذي نراه يوميا للتعليق على الأحداث.. هل الأمر يتعلق بسطو على الألقاب ولعب بالمفاهيم، أم هو مسألة موضوعية ونتيجة لتغير الواقع وتغير طريقة معالجته؟

● لا يتعلق الأمر بسطو، فالثنائيات التي تحدثت عنها كانت موجودة دائما، فالخبير كان موجودا وكذلك الإنسان المستهلك ورديفه المحتج والمواطن والمناضل. ولكن بعد أن سقطت أو تراجعت مجموعة من المحكيات، وقد كانت أصلا أحلاما قادت أجيالا من الرجال والنساء إلى الانخراط في معارك من أجل مجتمع أكثر إنسانية وأكثر حفاظا لكرامة الناس، لم يعد المجتمع في حاجة إلى المثقف، كما تراجعت قيمة المواطن قياسا على المستهلك. وعوض أن نناضل، أي نختار قيما ومبادئ ندافع عنها، اكتفينا بالاحتجاج. يعتقد كل الناس في الزمن الراهن الذي يطلق عليه الكثيرون «الزمن الحاضر» (أو اللحظة الأبدية – حيث الاحتفاء باللحظة مفصولة عن دفق يشد ماضيا إلى مستقبل– أنهم «يعرفون» ويفهمون كل شيء. وهذا ما يتضح من وجود وفرة في «الخبراء» الآن في الإعلام المغربي، وهم في الكثير من الحالات لا يقولون أي شيء، لكنهم يختفون وراء يافطة الخبير المختص في كل شيء، لكي يقولوا ما توده السلطة في الغالب. وكنت قد شرحت هذا في مقال سابق أوضحت فيه أن الخبير في أوروبا كان نتاج تحول من «المثقف الكوني» صاحب الوظيفة الاجتماعية إلى ما يسميه ميشيل فوكو «المثقف المختص» الذي يبيع معرفة، وهي معرفة حقيقية، لكنها تخلصت من الاجتماعي والإنساني فيها، وهذا ليس حال الكثير من خبرائنا.

– تقصد أن الخبير بالمعنى السائد حاليا هو شخص تتوفر لديه المعلومات، لكنه يفتقر إلى المعرفة –في الغالب– وليست لديه أي وظيفة اجتماعية كما كانت لدى المثقف؟

● هو كذلك في الغرب، وفي المغرب جزئيا. هناك خبراء في المغرب يعرفون موضوعاتهم جيدا، لكنهم ليسوا معنيين بالسياسة والأخلاق والقيم. إذ لا موقع لليسار واليمين والوسط في خبرتهم، والأساسي هو الاستجابة لما يطلبه صاحب الخبرة.

– لكن هل ما زال للثقافة من معنى في الزمن الراهن أو هذه اللحظة التي وصفتها بالأبدية، حيث من يحتل الوجاهة هم «البلوغرز» و«اليوتوبرز» و«الفلوغرز»؟

● بالتأكيد ما زال للمثقف موقعه داخل الفضاء الاجتماعي، وسيظل كذلك في المديين المنظور والبعيد أيضا. وهذا ما تؤكده الكتب التي صدرت في الفترة الأخيرة، وكلها تحذر من خطر «الشهرة» المزيفة، ومن الشعبوية، والميل إلى الاستهلاك المفرط، والانغماس في تواصل مفرط يخفي في حقيقته أزمة في التواصل، وذاك دليل على أن المقاومة موجودة وستتخذ أشكالا متنوعة. نحن لسنا ضد التقدم، ولسنا ضد منافع التكنولوجيا، لكننا ضد أن يفقد الإنسان نفسه وروحه ولغته. قد يشكك الناس في اليسار واليمين وفي الإيديولوجيات وكل أشكال الاعتقاد، لكنهم سيظلون مع ذلك يميزون بين الخير والشر، وبين الصدق والكذب. ربما لم تعد مقولة المناضل تغري كما كانت، بل لم تعد دليلا على خلق أو مبدإ فعلي، لكن الشرفاء موجودون ويخترقون كل التصنيفات القديمة.

– هذه المقاومة موجودة فعلا وبأشكال متنوعة. في هذا الصدد ألا ترى أن كل ما أفرزته ثورة التقنيات والاتصال سيبدأ في أكل نفسه بنفسه، فوسائل التواصل الاجتماعي، مثلا، التي قلبت كل المعايير وأتاحت الفرصة للجميع، سرعان ما بدأت تصيب الناس بالفزع، والكثيرون اليوم يريدون الفرار واستعادة حياتهم خارجها؟

● لا أحد يستطيع إيقاف التقدم، ولا يمكن أن نُلغي من حسابنا ما جاءت به الرقمية بمحاسنها ومساوئها، فنحن أسرى ما تبدع أيدينا، ومع ذلك بإمكاننا ترشيد استعمال هذه الرقمية. المشكلة في المجتمعات، خاصة المتخلفة منها. فليست المشكلة في الرقمية في حد ذاتها، بل في الكثير من الأمراض التي يعيشها الناس، ومنها النرجسية والرغبة في الاعتراف وحب الظهور والميل إلى الفرجة، التي تجعل الناس يحتفون بالظاهر ضدا على ما يمكن أن يُبْنَى في الكينونة. والذين يستهجنون ما نقوله لا يدافعون عن مبدإ في واقع الأمر، بل يبررون سلوكا. والحال أن نقاش مبدأ ما يجب ألا يتنكر للحقائق، بل يجب أن ينطلق منها، فهي أساس التحليل. وهذا ما يقوم به الكثيرون الآن في الغرب، فقد دق الكثيرون هناك ناقوس الخطر، وحذروا الناس من الأخطار التي تهدد كينونتهم وحميميتهم. ومن هؤلاء ما يطلق عليهم «الهاكرز المناضلون»، وأصحاب الضمير (إدوارد سنودن الذي تمرد على جهاز المخابرات الأمريكية وفضح أساليبها في التجسس على كل الناس). ومن بين هؤلاء أيضا مارك دوغان وكريستوف لابي صاحبا «الإنسان العاري»، وإلزا غودار صاحبة «أنا أوسيلفي إذن أنا موجود»، وغيرهم كثير.

– إذا عدنا إلى السرد، وهو مجال اشتغالك الأول أكاديميا، وأيضا من خلال حضورك، مؤخرا، في لجان تحكيم جوائز أدبية مرموقة في العالم العربي؛ ما الذي يثير انتباهك أو ملاحظتك في السرد الذي يكتب الآن بالعربية، خاصة من الأجيال الجديدة؟

● في الواقع لم أطلع على الكثير من هذا السرد. لكنه يشكل في جميع الحالات تجربة تستحق المتابعة. وما يمكنني قوله هو أن كتابة القصة أو الرواية ليست امتلاك كفاية سردية تتحقق في تقنيات قابلة للحفظ، بل هي في المقام الأول معرفة تخص المجتمع والإنسان. لذلك الموهبة وحدها ليست كافية، فالجهد والتصَنُّت إلى وجدان الناس والاحتكاك بالمحيط هو الذي يقدم لنا إبداعات كبيرة.

> الإصلاح الجامعي الجديد لن يكون مختلفا عن سابقيه لأن الذين يفكرون في الإصلاح لا علم لهم بواقع الجامعة المغربية ولا بما يجري فيها

– نختم بالسؤال المؤرق، الذي يتجدد كل مرة عن أزمة القراءة. ماذا تقول لنا عن القراءة وهي ممارسة يومية لك وفعالية وطقس لا غنى عنه؟

● القراءة تراجعت في العالم كله، لكنها اتخذت عندنا أشكالا تنذر بكارثة حقيقية لا يدرك هولها إلا من يعرف أننا لا يمكن أن نعيش بتجربتنا وحدها. فحياة الإنسان قصيرة جدا، لذلك لا يمكنه أن يعيش كل التجارب ليستوعب معنى حياته الخاصة، فقراءته للشعر والرواية والمسرح والمذكرات وغيرها من فنون القول والفكر ليس ترفا، بل ضرورة. إنه يتعلم من خلالها كيف ينتمي إلى ثقافته وثقافة الآخرين، بل يتعلم كيف ينتمي إلى قيم الإنسانية كلها. وهذا ما عبر عنه أمبرتو إيكو بقولته الشهيرة: «من لا يقرأ سيعيش حياة واحده هي حياته، أما الذي يقرأ فسيعيش خمسة آلاف سنة». وكان يشير بهذه الخمسة آلاف سنة إلى تاريخ الكتابة.